مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 17 العدد 1 (2024): 695 – 707 ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: 2588-1892

تيمة السّجن في رواية سراب الشّرق لواسيني الأعرج

Prison In Sarab Al-Sharq's Novel By Lassini Al-Arj

محمد بلمكي
جامعة تامنغست(الجزائر) ، كليّة الآداب واللغات، مخبر الممارسات اللغوية والادبية بالمناطق الصحراوية وامتداداتها الافريقية ،belmekki.mohamed@univ-tam.dz

تاريخ الاستلام:28-10-2023 تاريخ القبول:02-04-2024 تاريخ النشر:06-06-2024

ملخص:

تُعد المدينة من أهم الأماكن الرمزية التي اشتغل عليها الروائي واسيني الأعرج، نظرا لما تحمله من دلالات سيميائية وأبعاد رمزية، ليُصوِر لنا واقع الانسان المديني بكل تناقضاته وِفق سردية متميزة مُشكلةً تجربة واقعية، تتحرك من خلالها الشخصيات والأحداث وِفق حيزٍ مكاني وزماني مفعمٍ بالحيوية والنّشاط، جاءت رواية سراب الشّرق، لتُوضِّح لنا مُحاولة استنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثّقافي والاجتماعي العام.

ضمن هذا التّفاعل التّاريخي والجغرافيّ، هدفت الدّراسة إلى البحث في تشييد شكلي ورد بكثرة في الرّواية ألا وهو السّجن، كونه يُعدّ تيمة من التّيمات التي لها علاقة وطيدة بين سلسلة الأحداث، وبين هندسة الفضاء المدينيّ، محاولين الإجابة على بعض التّساؤلات:

-هل أصبحت المدينة مسرحًا للأحداث التي استولت على المكان فحولته إلى سجن واسع رهيب؟

- لماذا وردت تيمة السّجن بكثرة في سراب الشّرق، وما ينطوي تحتها من مترادفات كالتّمزّق والعذاب والقهر؟

- هل كان السّجن دائمًا وسيلة لإعادة نظام الحياة الطبيعيّ؟ أم أنّه كان وسيلة لإسكات المناهضين؟

كلمات دالة: الرّواية، التّاريخ، السّجن، الصّراع، تيمة.

المؤلف المرسل: محمد بلمكي: belmekkimed28@gmail.com

Abstract

The city is one of the most important symbolic places where novelist Wasini Al-Araj worked. In view of its toxic connotations and symbolic dimensions, to illustrate the reality of a civilian human being in all its contradictions, a distinct narrative constituting a realistic experience. in which characters and events move along a vibrant and active space and time, The East Mirage novel showed us an attempt to capture his silence in public cultural and social discourse.

Within this historical and geographical interaction, the study aimed to investigate the construction of a formality, which is widely reported in the novel: imprisonment, being an orphan of times that have a close relationship between the chain of events, and urban space engineering, trying to answer some questions:

-Has the city become the scene of the events that took over the place and turned it into a terrible large prison?

-Why has the prison orphaned so much in the mirage of the East, with synonyms such as rupture, suffering and oppression?

-Was prison always a way to restore a normal life system? Or was it a way of silencing opponents?

Key words: Novel, History, Imprisonment, Conflict, Orphan, Theme.

مقدمة

إنّ ارتباط الأدب بالتّاريخ هو حلقة بين الماضي والمستقبل، فلا شكّ أنّ غياب الصّلة بالماضي –لا سيما في الرّواية – هو ضرب من الشّطحات التي لا ترهن إلى أي بُعد من الأبعاد المؤثّرة في المجتمع، " وكلّما تأخّرنا في عقد هذه الصّلات بتاريخنا في مختلف جوانبه لا يمكن إلاّ التّأخّر في إرساء قواعدَ جديدةٍ للعمل الأدبيّ" (سعيد، 2002، صفحة 23)، ولذلك رأينا أن نتطرّق في ورقتنا البحثيّة لهذا الموضوع المتعلّق بالرّواية التّاريخية (سراب الشّرق) للرّوائي الجزائريّ (واسيني الأعرج)، و لم يكن اختيارنا لها اعتباطّيا، بل لأنّها تجمع بين متلازمين هما التّاريخ والجغرافيا، وإذا كنّا قد سلّمنا بأنّ التّاريخ شديدُ الصّلة بالعمل الأدبيّ وتأثيره في المجتمع، فإنّ الجغرافية هي هندسة لا يستغني عنها الرّوائيّ، باعتبارها قانونًا جماليّاً يوجّه لعبة السّرد ويرسم سيميائية تخييليّة في ذهن القارئ، تنقله من دائرة الوصف للحيّز الجغرافي المتخيّل، إلى تشييد الفضاء المشدود بأطر تاريخيّة.

من هذا المنطلق نجد أنفسنا نبحث عن الارتباط الوشيج بين تشييد شكلي، ورد بكثرة في الرّواية، ألا وهو السّجن لكونِه تيمة من التّيمات التي لها علاقة وطيدة بين سلسلة الأحداث التّاريخيّة، وبين هندسة الفضاء المدينيّ، من خلال الإجابة عن التّساؤلات الآتية: لماذا وردت تيمة السّجن بكثرة في (سراب الشّرق)، وما ينضوي تحتها من مفردات التّمزّق، والتّرقّب، والعذاب، والخوف؟ كيف عكس هذا البناء صورة الصّراع الدّائر بين قطبين غير متكافئين؟ هل كان السّجن –دائما– وسيلة لإعادة نظام الحياة الطّبيعي؟ أم أنّه كان وسيلة لإسكات المناهضين؟

قبل التّطرّق لتيمة السّجن بصورة خاصّة، حريٌّ بنا أن نعرّج على البعد الاجتماعيّ للرّواية العربية، ودورها التّوعويّ وشحذها لِهمَم السّكان من أجل إرساء الأفكار التّحرّريّة ومناهضة العدوان، أو من خلال طرح بعض الأفكار للتمعّن والتدبّر من أجل تغيير واقع المدينة المعيش.

البعد الاجتماعي للرّواية العربيّة:

يظهر البعد الاجتماعي في نشأة الرّواية العربية من خلال معرفة الوسيلة التي حصلت بها الرواية على شرعيّة وجودها، فهي حين وُلدت لم يتقبلها النّاس، فرفضها البعض من منظور دينيّ ظنّا منهم أنّ ما فيها من خيال وعاطفة، يتناقض ويتنافى مع ما تفرضه الشّريعة الإسلاميّة، ومن أمثلة ذلك ما قاله جابر عصفور معلّقا على حسنين هيكل: لقد خشي هيكل فيما قاله مؤرخو هذا النّوع، من أن تجني صفة الرّوائي على مكانته المهنية والسّياسيّة والاجتماعيّة على حدّ سواء، فما كان المجتمع يقبل من محام فاضل من أسرة فاضلة، ومن عضو مؤسّس لحزب الأرستقراطية المصريّة (كبار الملاك حزب الأمّة الذي تحوّل إلى حزب الأحرار الدّستوريّين)، أن يعرف بصفة كتابة الرّوايات التي يكتبها ويطالعها من لا مكانة لهم بارزة في القوم، والتي لا تستخدم إلاّ في التّسلية والتّفكّه وإضاعة الوقت الفارغ، وأن تدور هذه الرّواية فضلا عن ذلك حول موضوع غراميّ يتغنى بعاطفة الحبّ، في مجتمع كان ولا يزال ينظر إلى كلّ ما يتّصل بهذه العاطفة على أنّه دخل في باب ما يحسن السّكوت عنه" (جابر، زمن الرواية، 1999، صفحة 88).

إنّ الإنتاج الإنسانيّ بصفة عامّة؛ أي إنتاج يستحيل إلحاقُه بالصّدفة أو اللامقصدية، والرّواية باعتبارها خزّانا متداخل الأصول، تربط بين الوعي الاجتماعيّ المتجدّد والوجود الاجتماعي المحتمل، على أرضية انتقاد الوجود القائم والفعليّ، وتفسيره وتعرية جوانب الإعاقة فيه، المكبلة

والمقيّدة للتطوّر والتّجديد، ودرء عوامل التّخلف الكامنة في المجتمع، أو الدّخيلة عليه، والفاعلة والمؤثّرة، ومحاولة خلق وعي جديد لدى النّاس، وعي يؤثر في الوجود الاجتماعيّ من أجل التّخلّص من مظاهر الاستعباد والقهر والتّسلّط، هذا الواقع المتردّي المرفوض الذي أنهك الرّوائيّ العربيّ، وأغلق عليه كلّ منافذ الأمل دفعه إلى تجاوزه، فراهن على المستقبل وتعلّق به، فعبّر عن أحلامه من خلال إبداعاته وبما أنّ "الرّواية في الأساس نوع من مرآة الحلم الّتي يحاول الرّوائيّ أن يعكس نفسه الجوهرية فيها... قائلا: لا تستطيع أن تخلق إلاّ نفسك" (ولسون ، 1986، صفحة 27) فقد شحذ الأدباء والشّعراء ألسنتهم، وبروا أقلامهم وانبروا على تعرية الواقع المعيش، وأظهروا المدينة على حقيقتها.

إشكاليّة العنف:

العنف إشكاليّة معقّدة تتجاوز البعد السّياسيّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ والفكريّ، فهو يصاحب كلّ سلوك فعلي أو قوليّ يستخدم القوّة أو يهدّد باستخدامها، لإلحاق الأذى والضّرر بالذّات أو بالأشخاص الآخرين، أو بتعريف آخر هو كلّ سلوك بشريّ يمسّ الإنسان ويلحق به الضّرر في جسده ونفسه وفكره وعقيدته.

أمّا أشكاله ومظاهره فهي متعدّدة ومختلفة، منه العنف الذي يوجهه النّظام ضدّ المواطنين من أجل إعادة النّظام الطّبيعيّ للحياة، أو بغرض ضمان استمراره، والحدّ من تطلّعات القُوى المعارضة له، يمارسه النّظام من خلال آليّات وتقنيّات وأجهزة خاصّة كالشّرطة والمخابرات والقوانين الاستثنائيّة المعدّة لهذا الغرض، ومنه كذلك العنف الشّعبي الموجّه من طرف المواطنين والمجموعات المتطرّفة، ضدّ الأنظمة الحكوميّة الرّسمية "كما يمكن إضافة العنف الاجتماعيّ الذي يتمظهر في أشكال أفعال منفردة أو جماعية منعزلة، تستهدف الأشخاص والجماعات والمؤسّسات، سواء كان الفعل ضربا أو سطوا أو اغتصابا أو تكسيرا، ويتمظهر أيضا في المادّة الإعلامية التي تقدّمها وسائل الإعلام المختلفة خاصّة التّلفزيون" (علي، 2003، صفحة 89)، والذي راهنت عليه الأنظمة العالميّة كوسيلة لبثّ الدّعاية والفتن من خلال أخبارها وادعاءاتها المسمومة .

ليس من الغرابة أن تتعدّد أشكال العنف واستراتيجياتها حسب أهدافه ومقاصده"لأنّ الهيمنة بالقوّة والظّلم والمصالح الضيّقة،لا تنتج إلا الصّمود بالقوة، والإرهاب في كنهه هو أقصى تمظهرات العنف وأشده؛ لأنّه لا يعترف بالحياة كحق عند الآخر، ما لم يكفّ الآخر عن هيمنته

فأستهدف بذلك السّياسي والعسكري والمدني، والمنشآت والرّموز والأطفال والنّساء وغيرهم على السّواء،بدون تروّ أو إعمال العقل". (عبد الوهاب و فتحي ، 2003، صفحة 231)

كما يمكن أن نعرض أشكالا أخرى للعنف، متمثّلة في الأفكار العنصريّة وإرهاب الدّولة والطّائفيّة التي تظهر من حين إلى آخر في شكل هزّات اجتماعية، وانتهاك لحقوق الإنسان وحقوق المرأة، والإرهاب المرضيّ والإرهاب السياسيّ المعارض للأنظمة القائمة، والإرهاب في كل صوره وأشكاله المختلفة هو وسيلة للإكراه ونشر الرعب والخوف والموت في المواطنين العزّل وكلّ من يفعل ذلك بحقّ أو بغير حقّ يسمي إرهابيّا.

رغم اختلاف مسببات العنف إلا أن نتائجها واحدة"مهما اختلف الفاعلون لها، أو تباين المفعول بها، لكن لا تختلف نتائجها التي تستأصل الإمكانات الواعدة للحوار أو الاختلافات أو المغايرة أو الوجود الحرّ أو الوجود الخلاق، فكلّ فعل من أفعال القمع ممارسة للإرهاب والعكس صحيح، وكلاهما لصيق بالتعصب الذي هو أصل لهما، ودافع أساسي من دوافعهما، والتعصّب علّتهما الأولى خصوصا في المدار الأول الذي ينقلب به العقل على مبدئه الحيويّ فيصادر حريّة غيره التي لا معنى لحريته من دونها (جابر ، 2003، صفحة 71)،ومهما يكن فأسباب العنف مختلفة ومتعدّدة، منها السّياسية والاجتماعيّة والفكريّة والعقديّة وحتى المرضيّة، ولكنّها تؤدّي إلى نتائج سلبيّة مجتمعة أو متفرّقة.

المدينة في سراب الشّرق:

يعدّ الفضاء شرط الوجود الإنسانيّ الذي لا يحدّد وجوده إلّا به وفيه، ويمارس الحضور والغياب من خلاله، فالشّخص حينما يحضر إنّما يحلّ في فضاء وعندما يغيب فهو ينتقل إلى فضاء آخر، ويذهب هنري متران بالقول "لا أعرف هل توجد دلائلية تهتمّ بالفضاء المدينيّ وإن أكّد بعض المهندسين وجودها كما أنجزوا في الموضوع عددا خاصّا من مجلة (COMMUNICATIONS)لكن يوجد على كلّ حال ملفوظ روائي للفضاء (هنري ، 2002، صفحة 131)،هذا الفضاء يمكن أن نقول عنه أنّه الجغرافيا التي تدور عليها الأحداث والتي تتّسم بالثّبات رغم الحركة التي تُمارس فيها من طرف الشّخصيّات(لكنّه حينما تحتضنه اللّغة يتجاوز هندسيته وجغرافيته،وإن حافظ عليها لأنّ الدّور الإيحائيّ للّغة تحمله دلالات وعوالم أخرى تمنحه أبعادا لغويّة، فيصير هلاميّا يصعب الإمساك به إمساكا باللّغة ذاتها، يشكّله الكاتب والمتكلّم حسب ضرورات اللّغة الموظّفة لذلك، ويلعب الوعي الدّور الأهم في هذه

العملية (الشريف، 2010، صفحة 23)، هنا تكمن أهمية الفضاء لكونه يمثّل عنصرا مهمّا في تشكيل النّص الرّوائي وأحد الركائز التي يقوم عليها الحبك الرّوائي.

والقرية كفضاء في هذه الرّواية قد لخّصت الطّابع الجماعيّ للشّعب الجزائريّ في الرّيف، المعتمد على الموارد الفلاحيّة وخدمة الأرض، ورعاية الحيوانات الأليفة، وكان توجيه القارئ فيها إلى الثّورة الزّراعيّة والاشتراكيّة واضحا، ففي رواية (محمد زتيلي) مثلا، توجيه مباشر لعمارة القرية" تسمع الأسرة نبأ توزيع الأراضي على الفلاحين في إطار الاستفادة من الثّورة الزّراعيّة، فتقرّر العودة إلى الرّيف لتدخل سكنا جديدا كغيرها من الأسر، لأنّ مساكن جديدة قد بنيت على أنقاض الأكواخ البالية المحترقة..." (مخلوف ، 2000، صفحة 24)؛ فطموحات القرويين محدودة، وهم يتجاوزون سقطاتهم وهناتهم بكثير من الرضا، بل يستخلصون من تعثراتهم حكما تخفّف عنهم أتعابهم،" ويجهلون ما تسمّيه الحضارة الغربية (اللاّرضا)، لا يعانون وبعيدون عن التوتّرات النّفسيّة النّاجمة عن الاحتكاك بالآخرين" (مختار ، 1978، صفحة 25).

أمّا المدينة فهي فضاء واسع يضمّ عددا معتبرا من السّكان تتعدّد منابعهم ومشاربهم، وتختلف رؤاهم، ولهذا فإنّ هذا الفضاء في الرّواية كان مسرحا للصّراع الدّاخلي والخارجيّ، لمعالجة موضوعات اجتماعية وأخلاقيّة، وسياسيّة وثورية كثيرة. وقد حضر هذا الحيّز المكانيّ في كثير من الأعمال الإبداعيّة المعاصرة بكثرة، كرواية (سيدة المقام) لواسيني الأعرج، وكذا رواية (امرأة بلا ملامح) لكمال بركاني، وكذلك الحال في رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي، وكأنّه النّسيج الجغرافيّ الوحيد الذي يقدّم كثافة الحضور والتّجربة والواقعيّة للحياة اليوميّة، إلى جانب الجماليّة الحسّية التي توفّرها اللّغة داخل تمظهرات تسلسل الأحداث الرّوائيّة"وحضور المدينة بهذه الكثافة يتخطّى طبيعتها المكانيّة إلى مستوى دلالي، يجعل منها فضاء للأزمة بكل أبعادها، يبدأ هذا التّحول باكتساب المكان شكلا جديدا، تستعيره الشّخصيّات من مدن أخرى، فتضيّع المدينة زيّها القديم إلى درجة يشعر فيها البطل بالغربة والوحدة." (الشريف، 2010، صفحة 61)فتكسر أفق انتظاره الذي اعتاد عليه، وتدفعه إلى سلوك سلبي في كثير من المحطات .

لقد ارتبطت المدينة في سراب الشّرق بمعمارية المتن الرّوائي، القائم على سبيل التّجزئة ثمّ التركيب، فالرّواية مؤلفة من مجموعة من القصص تشكل تراتبيّة اجتماعيّة داخل فضاءات حضريّة، تنقل بأمانة المدينةَ السّراب بسبب فقدانها للأمل القائم على حسابات دقيقة من أجل

العيش في كنف الحرّيّة؛ حيث الوقار والسّلوك الرّاقي والتفاهم المتبادل بين الأعيان وبين العلماء وبين البسطاء أنفسهم.

لم تكن المدينة في (سراب الشّرق) إلا مسرحا للأحزان التي استولت على السّكان، حتّى تحوّلت في بعض الأحيان إلى سجن رهيب :"الجمعة يوم ميت كالعادة، لم تكن سماء دمشق مريحة أبدا...كانت بعض الوجوه مغلّفة بغلاف فولاذي بارد" (واسيني ، 2015، صفحة 265)، و لم يكن الكاتب مهتما بإبراز المظاهر العمرانيّة إلّا ما ورد عفو الخاطر، فاهتمامه كان منصبّا على الصّراع القائم بين الأهالي وبين المستعمر، تارة وبين السّاسة وبين المفكّرين تارة أخرى ، فبدت المدينة تحمل صورا مأساوية انقلبت جحيما وألما، فنقلت المعاناة التي تعرّض لها من ركب رأسه وناهض مغتصبي المدينة، وعبّر عن سخطه من تصرفاتهم إزاء الرّعيّة، أومن الذين يعملون لصالح المستعمر كالأمير (سعيد) الذي أوهم العامّة أنّه يتقرّب من (جمال باشا) من أجل مصلحة البلاد، فكان" يكفي في الحيّ سماع هذا الاسم لكي يقف شعر النّاس وتستفز كلّ حواسهم، فيبصقون على الأرض، وهم يتمتمون مخافة أن تسمعهم عيون الأتراك" (واسيني ، 2015، صفحة 266)، تنقل ،إذن،(سراب الشرق) ملامح المدينة الرّافضة للاستعمار التّركي، والأهمّ من ذلك الرّوح الانتقادية العالية الواردة على ألسنة سكّانها، فتبدو المدينة تيمة جماليّة تنقل واقعا دراميّا يحمل إشارات الرّفض ومعاني السّخط على المغتصبين،"قال فيليب: أنت تعرف جيّدا مشكلة هذه المدينة هذه الأيام، نحن في حالة غليان" (واسيني ، 2015، صفحة 60)؛ ويظهر هنا التّوجيه السّرديّ القائم على أيديولوجية التحرّر؛" فالإنسان المتكلّم في الرّواية هو دائما صاحب أيديولوجية بقدر أو آخر، وكلمته هي قول أيديولوجيّ، واللّغة الخاصّة في الرّواية هي دائما وجهة نظر خاصّة إلى العالم..." (ميخائيل ، 1988، صفحة 110).

ومن هنا نستشفّ أنّ المدينة المراد بناؤها ليست تلك المدينة الثّابتة الرّاضية بالاغتصاب الاستعماريّ؛ بل هي المدينة الصّاخبة، المناهضة للعدوان، الرّامية إلى تكسير الحواجز و خلخلة الثّوابت، فهناك استفزاز جمالي تحرّكه رؤية مضادة تنطلق من واقع جغرافي قابع في الذّاكرة لتحريك وجدان القارئ؛ " جدّي مثل نارسيس لم يتخلّص من سحر وجهه الذي رآه في البحيرة " (واسيني ، 2015، صفحة 94) ، وقد استطاع الكاتب أن يحرّك مضاجع ومواجع القرّاء من خلال الحديث عن جمال سوريا ولبنان وعن التّطوّر الذي كانت ستشهده مدنها لولا مجيء الأتراك، "انتبه جاز إلى مجموعة من الصّور المرصوصة المنتقاة بألوانها الفاقعة والمستفزّة،

تأمّلها جيّدا، ثمّ عبّر بسرعة على الفتوحات العربيّة في مجالات التّصنيع التي لم تكن عادية، ومصافي النّفط والمصانع الكبيرة، فقد شاهد بنايات كثيرة شاهقة تشبه ما يراه يوميا في بروكلين..." (واسيني ، 2015، صفحة 88) ولم يكتف الكاتب بعرض جغرافية المدينة بل كان يركّز على الجانب التّاريخي الملهم للبطولة، وجاءت كلّ الأحداث مضبوطة تاريخيّا في الرّواية.

السّجن في سراب الشّرق:

السّجن، وأعواد المشانق وساحة الإعدام هي أسماء وردت بكثرة في النّص الرّوائيّ (سراب الشرق) تعكس –دون شكّ– حياة الخوف والهلع التي كان يحياها سكان المدينة، وهي ردود فعل يترجمها ضعف المستعمر لإخماد "الثّورة العربيّة الأولى، ورغبة العرب في التّحرّر من الأتراك وتكوين دولة مستقلّة" (واسيني ، 2015، صفحة 90)، ويبدو السّجن في الرّواية منشطرا إلى قسمين؛ سجن معنوي يفسّر عدم تحرّر سكان المدينة من قيود التّاريخ والجغرافية والهُويّة والأديان، وسجن آخر يعكس مدى بطش السّياسيين غير القادرين على تغليب لغة التّفاهم والحوار؛ وكان هذا الأخير قد استحوذ على معمارية النّص الرّوائيّ، لم يكن فيه نصيب لوصف هيكلة السّجن بقدر ما كان يقدّم صورة سيميائيّة لشجاعة وبطولة المسجونين العرب ففي" صور التقطت في سجن عالية بمرتفعات بيروت في سنة 1916 لنفس الأشخاص وهم يبتسمون وكأنّهم في عرس جماعي، ثم وهم معلّقون على أعواد المشانق في ساحة البرج" (واسيني ، 2015، صفحة 90)، وهنا يمكن تفسير ابتسامة الجنود بشيئين مهمّين، إمّا أنّ للجنود عقيدة دينية أو وطنيّة تجعلهم لا يحفلون بالموت، أو أنّ صبرهم قد نفذ جرّاء العذاب المستمر في السّجون فأضحوا يفرحون بمجيء الموت.

ولم تكن رواية السّراب للكاتب (واسيني الأعرج) مجرّد سرد لأحداث مضبوطة تاريخيّا، أو مجرد تعليقات وتعقيبات وعرض صور لوقائع متفاوتة زمكانيا، حدثت في المشرق العربيّ، بل هي بمثابة المجهر في عمل روائيّ، تحرّك في ظلال أبعاد فلسفية باعثة على التّفكير والتدبّر في كلّ ما وقع، أو يمكن أن يقع في بوتقة الصّراع الدّائر بين المستعمر التّركيّ وبين دول المشرق العربيّ، وكذا نقل حياة الصّخب والضّجر المشحونة بالتّناقضات وبالمفاجآت المرغوبة وغير المرغوبة.

كما حملت الرّواية مظاهر الصّراع منذ العنوان الأوّل (حرائق نيويورك) مرورا بـــــالمخاطر الكبرى، ومدافن الخيبة، ومدارات اليأس إلى نزيف الخيول الجامحة، وهي كلّها عناوين حملت معها رائحة الغبن واليأس والموت، ناوش من خلالها جزءا أساسيّا مهمّا من المدينة، وحاول أن يعيد نظامها بعد الارتباك والخلل، وخصّ هيكلا يلخّص المعاناة ، إنّه السّجن؛ ذلك الفضاء المغلق، الذي تنعدم فيه حرّية الفرد، فلا يبرح مكانه ويقتله فيه شبح الانتظار، إنّه مكان تنعدم فيه معاني القيم الإنسانيّة، فتهان النّفس وتداس الكرامة، ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم رفضوا الاستعمار وعمدوا إلى توعية عامّة النّاس "بأنّ الاستعمار مهما كان حضاريا، فسيظلّ استعمارا يستهدف تذليل الشّعب وتركيعه" (واسيني ، 1986، صفحة 17)، فكان السّجن وسيلة مهمّة لوأد الأفكار التي يراها المستعمر هدّامة، تعصف بأمن الدّولة، كما تعدّ في نظر السّياسيين خارجة عن القانون؛" فالخميني عندما أحرق شارع النّساء أو حي المومسات، كما كان يسمّيه حرّاس الثّورة، لم يلغ والدي من حسابه، فدفنه في السّجن حتى الموت" (واسيني ، 2015، صفحة 23).

لعب السّجن في الرواية سواء كهيكل يؤدّي وظيفة إعادة التّربية أم بشكل مجازي في تمفصلات الرّواية دورا حيويّا، ولا شكّ أنّ المكان من العناصر والمكونات الأساسيّة والمهمّة في العمل الرّوائيّ، وذلك لما يحمله من أبعاد جماليّة وفنّيّة، أو من حيث إنّه يبعث على البحث عن مظاهر الصّراع في الرّواية، وفي كلا الحالتين يسهم في عملية بلورة مجرى الأحداث وبناء الشّخصيّات، فالسّجن هنا لم يكن حيّزا أو مجالا تتحرّك فيه الشّخصيّات فحسب؛ بل تعدّى ذلك إلى أنّه حمل دلالات وإيحاءات تشير إلى القصد والمعنى الذي يتضمّنه النّص.

ورد السّجن في الرّواية بشكل ملفت للانتباه، ولاحق الحريات الفرديّة، ولم يكن الموسيقيّون في منأى عنه يقول صاحب الرّواية:" أمّي هربت بنا وقادتها الدّنيا إلى هذا المكان، إلى اليوم لا أعرف في أيّ شيء يمكن للموسيقى أن تؤذي البشر، وماذا كان في رأس الخميني، وهو يصدر بياناته المتلاحقة ضدّ والدي ومن شابهه؟ والدي كان عازفا في الأوركسترا الوطنيّة...ظلّ مشدودا إلى سانتوره الذي توارثه عن سبعة أجداد" (واسيني ، 2015، الصفحات 23–24) ، ومن هنا يظهر جلّيا كم كان السّجن في المدينة مُصادرا لحريات الفرد، وكم كان هذا المكان المقيت الذي يكرهه النّاس يستعمل لوأد الفنّ بدعوى تحريم الشّرع له، رغم توارث الوالد لهذه البذلة أبا عن جدّ.

ويبدو السّجن أكثر ألما حينما تشتعل المدينة ويسمع السّجين صخب الأهالي وهم يفرّون من هول ما يحدث، ويبقى السّجين يقتله الانتظار، ويصوّر لنا الرّوائيّ حادثة الحادي عشر من سبتمبر، وما خلّفته من دمار، إلّا السّجن بقي مُحاصرا للمسجونَين يقتلهما الضجيج، ويصوّر الرّوائي حالتهما قائلا:" بقيا ملتصقين بالمكان لا يفهمان ما كان يحدث، بينما بدأت الطّرقات الواسعة تكتظّ بالسّيارات، وسيارات الإسعاف التي كانت أصواتها تسمع وهي تأتي من أمكنة ليست بعيدة" (واسيني ، 2015، صفحة 26)، إذا كان الرّوائيّ قد استغنى عن عرض التّفاصيل الدّقيقة للسّجن؛ حتّى يكتشف القارئ إن كان سجنا انفراديا أو جماعيا، وتتبلور لديه فكرة حول الحياة في السّجن، فإنّه جعل أحداث الرّعب التي يتعرّض لها السّجين، تكشف مدى المعاناة التي يعانيها المنشق عن القانون.

ويظهر المشهد في المدينة أكثر رعبا حينما يلفظ السّجن بعض مسجونيه إلى ساحة عمومية لترهيب عامّة النّاس من خلال الطّريقة البشعة التي يقتل بها السّجين، وإن كان المشهد يترك آثارا نفسيّة رهيبة على العامّة، فهو يُفرح البعض بل ويجعل مثل هذه الأعمال انتصارا وتحقيقا لأحلام يقول الرّوائيّ:"...حلمه الوحيد كان هو أن يرى جمال باشا يتدلّى على أعواد المشانق في ساحة المرجة، وعلى مرأى من جميع أهالي المدينة (واسيني ، 2015، صفحة 262)، وهنا يتحوّل الفضاء الواسع إلى سجن حين يحاصر الجموع السّجين المحكوم عليه بالإعدام ويضيق المكان بأهله، وهم يرون الموت يحلّق فوق رؤوسهم ليختطف أحدهم دون أن يحرّكوا ساكنا.

أمّا السّجن المعنويّ، فقد ظهر جليّا بين أسطر الرّواية ليعكس صورة المدينة البائسة تحت ويلات الاستعمار، وما استعمال عبارات السّآمة واليأس إلا دليل على كدر العيش في زمكان الرّواية، وهذا الجدول يلخّص معاناة السّكان في الفترة التي عالجتها الرّواية:

جدول1: المفردات التي تُعبر عن معاناة الإنسان من خلال صفحات الرّواية

المفردة أو العبارة	رقم الصفحة	المعنى المراد إيصاله
محيت كل حروفها	60	المعاناة اليومية محت حروف الذاكرة .
عالم تبعثر مثل الدخان اندثرت فيه الأحلام	66	خيبة الأمل، القهر، الحرمان.
عشنا على الحواف و لم ندخل الأرض	82	الضياع وحالة التشرد والتهميش في بلاد المنفى.

البحر الذي يشكل حزاما لا أحد يضمن أمنه	83	أضحت المدينة سجنا فالمستعمر والبحر يحاصرانهم.
كانت روح منتهكة	85	كآبة وتعب نفسي.
أورث ابني حزنا، جرح يصعب رتقه	102	الألم والمعاناة المتوارثة.
رجل منكسر	199	الألم والخيبات المتكررة.
الجد المجنون الذي اضطر للاندفان في أعماق الأرض	120	العيش في المنفى أشبه بالدفن في القبر.
العزلة الباردة	125	الوحدة والتعاسة التي يحياها الجدّ.
الفجر الذي يأتي بالموت	130	قساوة الظروف والخوف من الموت.
لا تعرف كيف تلعب بنا أسماء المدن وكيف توقظ فينا الأشواق الميتة	135	حب الوطن والشوق إلى العودة إلى ترابه.

المصدر: من إعداد الباحث.

من خلال المفردات الواردة في الجدول أعلاه، والمنتقاة من متن الرواية، والتي تُبين الظروف التي عاشها الوطن العربي بمختلف أقطاره لاستدمار غاشم استغل ثرواته وطاقاته، وحاصر شعبه بمختلف أنواع القهر والقمع والظّلم والجهل والحرمان، والغرض من وراء ذلك كبت الحريّات ومحو الثّقافات والنّيل من عزيمة الشّعوب.

ضمن هذا الواقع المتردّي المفروض، عالجت الرّواية العربيّة بصفة عامّة والجزائريّة بصفة خاصّة واقع الحياة الاجتماعيّة وصوّرته أحسن تصوير، واحتلت المدينة حيزًا واسعًا في الأعمال الروائيّة لواسيني الأعرج، وكأنّها الفضاء الجغرافيّ الوحيد الذي يُقدّم تجربة واقعيّة حيّة تتحرّك من خلاله الشّخصيّات والأحداث في بيئة محملة بتيمات احتشدت ضمن المتن الرّوائي لتُعبّر عن واقع مرير عاشه الإنسان المديني في فترة من الفترات.

خاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن الخروج بالنتائج التاليّة:

– تكشف لنا الرّواية مجموعة من القيم السّياسيّة والاجتماعيّة السّائدة في المجتمع من خلال صورة المدينة ،كموضوع رئيس ينقل لنا أحوال المجتمع وأزماته.

–حملت الرّواية مظاهر الصّراع القائم بين الإنسان والسّلطة الاستعمارية منذ العنوان الأوّل: حرائق نيويورك مرورًا بالمخاطر الكبرى ،ومدافن الخيبة ومدارات اليأس، إلى نزيف الخيول الجامحة، وهي كلّها عناوين حملت معها مظاهر الصّراع القائم.

–تعدّ المدينة في رواية سراب الشّرق مسرحًا للأحزان التي استولت على المكان حتى حوّلته إلى سجن رهيب.

–يُعدّ السّجن تيمة من التيمات التي لها علاقة بين سلسلة الأحداث التّاريخيّة، وبين هندسة الفضاء المديني.

– وردت تيمة السّجن بكثرة في رواية سراب الشّرق وما ينطوي تحتها من مرادفات لتعكس صور التّمزق والترقّب والعذاب.

–قدّم الرّاوي السّجن كمكان لقمع الحريّات ومصادرة الآراء، وكبح جماح المناهضين للثورة، وقدّمه في صورة مجازية تمثّلت في عدم قدرة الأهالي على مغادرة المكان.

–اتخذ السّجن بدوره صوراً جديدة،حيث بات يتموقّع في مستوى اللغة، فينتج دلالات متعدّدة لمكان واحد يسكنه الخوف وفقدان الأمل، ويعكس مدى بطش السّياسيين والعسكريّين غير القادرين على تغليب لغة العقل والحوار على لغة التعذيب والموت.

– لم يتخذ الراوي السّجن حيزا أو مجالاً تتحرك فيه الشّخصيات والأحداث فحسب، بل تعدى ذلك إلى أن حمّله دلالات وإيحاءات تُشير إلى القصد والمعنى والبُعد الجمالي والفني الذي يتضمنه النّص.

–القرية لخّصت الطابع الخصوصي الجماعيّ للمجتمع الجزائريّ في الرّيف من خلال سياسة الثورة الزّراعية والتوجّه الاشتراكي للدّولة الجزائريّة خلال فترة السّبعينيات من القرن الماضي.

–أرّخت الرّواية لفترة تاريخيّة مسكوت عنها، كاشفة من وراء ذلك حقيقة الصّراع القائم خلال هذه المرحلة بين المستعمر وبين الدّول المستعمرة.

قائمة المراجع:

الكتب:

- الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر– بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- الأعرج واسيني، سراب الشرق ج1، موفم للنشر، الجزائر، 2015.
- باختين ميخائيل، الكلمة في الرواية، تر حلاّق يويسف، منشورات وزارة الثقافة السورية 1988.
- حبيلة الشريف، الرواية والعنف: دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.
- عامر مخلوف، الرواية والتحولات في الجزائر، دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية اتحاد الكتاب العرب، دمشق (سوريا)، 2000.
- عصفور جابر، زمن الرواية، دار الثقافة والنشر، دمشق، 1999.
- عصفور جابر، مواجهة الإرهاب: قراءات في الأدب المعاصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003.
- علي أبو غالي مختار، المدينة في الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978.
- كولن ولسون، فن الرواية، تر درويش محمد، بغداد، 1986.
- يقطين سعيد، الأدب والمؤسسة والسلطة: نحو ممارسة أدبية جديدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، 2002.
- المسيري عبد الوهاب، التريكي فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، 2003.
-هنري متران ،الفضاء الروائي، تر عبد الرحيم، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.

ملتقيات:

- بوعناقة علي، العنف الاجتماعي المظاهر والتوتر: مداخل معرفية متعددة، أعمال الملتقى الدولي الأول: ملتقى العنف والمجتمع، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، 2003.